المباحث البلاغية في ضوء اللسانيات النصية:
أثر مباحث علمي المعاني والبديع في بناء النص وتماسكه

د. عثمـان بريحــة
وحدة البحث اللساني وقضايا اللغة العربية في الجزائر
مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية
-ورقلة-الجزائر-

ملخص المداخلة:

التراث البلاغي ما انفك يبعث في نفوس الباحثين متعة وفي الإقبال على الاشتغال به لذة، وما زال الباحثون على تتابع الأيام آخذين بقراءته قصد اكتشافه والتوصل إلى أساليب تنظيرية حديثة تبعث أصوله القديمة، وذلك وفق مناهج جديدة تنظر إلى تلك الأصول برؤى تهدف إلى الاستفادة منها في ضوء النظريات اللسانية المعاصرة، وعلى نحو يحرك فاعليتها ويجعل منها حصيلة معرفية متنوعة ومتعددة وخلاقة.

ولئن قاد هذا – في الكثير من الأحيان- إلى الإبانة عن القيمة الحقيقية للتراث البلاغي، فليس بجديد إذا قلنا إن جوانب عدة لم تحظ بعد بنصيبها من البحث والدراسة، وذلك بالنظر إلى تطور حقول الدراسات اللسانية في العقود القليلة الماضية، ودورها في التنبه لما يحتويه التراث البلاغي من علامات طريق أولى خاصة في مجال لسانيات النص والخطاب، هذا النهج الجديد في الدراسات اللسانية الذي يحوي مفاهيم وتصورات وأفكار تجاوزت نطاق الجملة إلى أفق النص فأدت إلى تصدره للمناهج اللسانية المعاصرة، مما دفع بالكثير إلى الاهتمام به والإقبال عليه جراء ما وجدوا من شبه بينه وبين تراثنا البلاغي.

وعليه تأتي هذه المداخلة لترصد أثر المباحث البلاغية في بناء النص وتماسكه وتتابع أجزائه، ويتعلق الأمر بمباحث علمي المعاني والبديع وكيف تنبه البلاغيون إلى دورها في تشكل النص ووظيفتها في نسجه، وقد تعاطى جلهم مع مسائل لها صلة بالآليات التي تحقق التماسك النحوي والدلالي في النص على حد سواء. وأهم المباحث التي سيتم الحديث عنها في علم المعاني هي: الإسناد والحذف والالتفات والفصل والوصل ، أما مباحث علم البديع بشقيه المعنوي واللفظي فمتعددة ومنها: رد العجز على الصدر والطباق وتشابه الأطراف ومراعاة النظيروحسن التخلص وغيرها من المباحث. وذلك كله بقصد الإبانة عن الثراء الذي يحويه التراث البلاغي فيما يتعلق بقضايا النص وتماسكه، وبهدف دراسة إمكانية البدائل التي يطرحها التراث في هذا المجال.

Summary of the intervention:

The rhetorical heritage is what gives you joy in the hearts of researchers, a pleasure in the demand for work in it, and the researchers continue to follow the days, taking the time to read it in order to discover it and come up with modern theoretical methods that send out its ancient origins, according to new approaches that look at those assets with visions aimed at benefiting from them in the light of Contemporary linguistic theories, in a way that stimulates their effectiveness and makes them a product of diverse, diverse and creative knowledge.

While this has led - in many cases - to indicate the true value of rhetorical heritage, it is not new if we say that several aspects have not yet had their share of research and study, given the development of the fields of linguistic studies in the past few decades, and their role in paying attention to what the heritage contains Al-Balaghi is one of the first road signs, especially in the field of linguistics of text and discourse. This new approach in linguistic studies contains concepts, concepts and ideas that went beyond the scope of the sentence to the horizon of the text and led to its promulgation of contemporary linguistic approaches, which prompted a lot of interest in it and its

acceptance due to what they found in it. And between tr Tna Rhetorical.

Accordingly, this intervention comes to monitor the impact of the rhetorical detective on the construction of the text and its coherence and the sequence of its parts. whether. The most important topics that will be talked about in the science of meanings are: attribution, deletion, gestures, separation and interconnection, whereas the topics of knowledge of Al-Badi'i, both moral and verbal, are numerous, including: restoring disability on the chest and counterpoint, similarities of the parties, observance of the counterpart, good disposal and other topics. All of this is for the purpose of indicating the richness contained in the rhetorical heritage with regard to the issues of the text and its cohesion, and with the aim of studying the possibility of alternatives presented by heritage in this field

تقديم:

كانت نهاية الستينات وبداية السبعينات أذاناً بميلاد فرع علمي جديد، واتفق الباحثون والدارسون على أنّه أحدث فروع اللسانيات، وأنّه الوريث للبلاغة والأسلوبية، ونشأ هذا التوجه في أحضان المدرسة الألمانية وعلى يدي علمائها أمثال هارتمان (nnamtraH.P) وهارفيج (geiwraH.R) وشميث (tdimhcS.F.S) وفاينريش (hcrnieW.H) وتوان فان ديك (kjiD naV.T)، وعرف هذا التوجه بـ«علم النص» أو «لسانيات النص » وفي أقطار أخرى بـ«تحليل الخطاب» sruocsiD sisylanA.

وتعود بدايات هذا العلم إلى مؤتمر عقد عام 8691 بجامعة كونستانس (znatsnoK) بألمانيا تحت إشراف عالمي اللغة هارتمان وفاينريش، وقد حدّد هذا المؤتمر حدود ومعالم هذا العلم الجديد ومعايير ومهامه. ويعدّ هذا الفرع الجديد من علوم اللغة –كما أشار فان ديك- وريثا للبلاغة وتعد هذه الأخيرة «السابقة التاريخية لعلم النص، إذ نحن تأملنا التوجه العام للبلاغة القديمة إلى وصف النصوص ووظائفها المتميزة، إلاّ أنّه لما كان اسم البلاغة يرتبط غالبا بأشكال ونماذج أسلوبية معينة، وأشكال ونماذج أخرى

فإننا نؤثر المفهوم الأكثر عمومية علم النص»[1] ، على أنّ ما يميز هذا العلم رغم تعدد الدراسات وتنوعها لمّا يصل بعدُ إلى صياغة نظرية كاملة وشاملة تغطي أبعاد النص وترصد علاقاته، وتضع الإطار النظري المحدّد للظاهرة النصية، وتجاوز البحث التقليدي للجملة باعتبارها أكبر وحدة في التحليل والوصف إلى أفق النص، وذلك استنادا إلى كل ما ورثناه عن البلاغة والنقد والأسلوبية، وما قدّمته علوم أخرى كالسيميائيات والتداولية وعلم النفس والاجتماع وعلوم الاتصال كون النص هو القاسم المشترك بينها جميعا، الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل عن مهام هذا العلم ومجالاته.

وما دامت (لسانيات النص) علماً واسع النّطاق ومتداخل الاختصاصات فما يناط به هو أن «يهتم بوصف وتحليل أشكال نصية وأبنية نصية مختلفة، وشروطها ووظائفها وتأثيراتها المتباينة، والمحادثات اليومية، والأحاديث العلاجية، والمواد الصحفية والحكايات والقصص، والقصائد ونصوص الدعاية والخطب، وإرشادات الاستعمال والكتب المدرسية، والكتابات والنقوش ونصوص القانون والتعليمات»[2]، أو أن يضطلع بوصف«العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصية بمستوياتها المختلفة، وشرح المظاهر العديدة لأشكال التواصل واستخدام اللغة، كما يتم تحليلها في العلوم المتنوعة»[3].

هذا وقد حرص علماء النص على أهمية النص كوحدة كبرى للتحليل، وعدُّوا دراسة الجمل دراسة قاصرة عن تزويدهم بحقائق تخص الظاهرة النصية، لذلك نجد الكثير من المشتغلين بالنص يهدفون إلى دراسة الروابط بين الجمل وتتابعها ومظاهر انسجامها، ومن ثمَّ اتضحت الفروق بين الجملة

(1)- فان ديك، تون: علم النص،: مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2001،ص23.

(2)- المرجع نفسه، ص11.

(3)- فضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية للنشر لونجمان، الجيزة،مصر، ط1، 1996ص 247.

والنص. والحقيقة أن هذا الفصل بين الجملة والنص لا يتناسب مع الواقع الفعلي لكونهما متكاملين، وذلك لأن النص ما هو إلا مجموعة من الجمل، فكما أن الفونيم وحدة الكلمة، والكلمة وحدة الجملة، فإن الجملة وحدة النص، هذا من جهة ومن جهة أخرى التوسع في مجال التحليل ليشمل النصوص وتوظيفها في الاتصال لا ينقص نقيرا من أهمية الوحدات اللغوية المعزولة (الفونيمات-المورفيمات-المركبات الاسمية-الجمل)، الأمر الذي يؤكد أنّ الجملة والنص يشتركان في تحليل مواد لغوية ذات صفات مشتركة، أولها أن كلا الاتجاهين يحللان البنية erutcurtS، ومن ثَمَّ يمكن اقتراح نحو الخطاب من أجل توليد النصوص، وهكذا نستطيع أن نصمم أنموذجا لنحو واحد يعالج بنية الجملة وبنية النص من خلال توسيع وتطوير النظام الذي يحدد بنية الخطاب. أما الصفة الأخرى فتتمثل في كون النصوص مثلها مثل الجمل ذات معنى، وأن العلاقات الدلالية في الجملة يمكن أ تقوم أيضا بين الجمل في نص ما. إضافة إلى ذلك فكما تقوم العلاقات الإحالية بين العناصر في الجملة يمكنها أن تكون ضمن العناصر في جملتين منفصلتين في النص، وهذا يستدعي وجود معالجة نحوية بلاغية واحدة لكلتا الحالتين، كما يستدعي ذلك من المؤيدين لنحو الجملة السعي إلى تطوير نموذجهم على أساس تجريبي.

ذلكم وإن سعى الغرب إلى تجديد البلاغة وبعث مكوناتها النظرية فإن الكثير من الباحثين في ثقافتنا العربية يجأرون بادعائهم القطيعة، ويتهمون التراث بالعجز عن تلبية ما تقتضيه الثقافة الحديثة، فسقطوا في مهواة من الظن حجبت عنهم دلالاته، ، وتم استبعاد الأساس العربي لديهم الذي لم يكن بعيدا أو بمنأى عما قدمه الغرب.

1-المباحث البلاغية في ضوء المقاربة النصية:

أ. أثر مباحث علم المعاني في بناء النص وتماسكه:

أ-1. الإسناد:

تحدث البلاغيون العرب عن الإسناد بوصفه مبحثا من مباحث علم المعاني وذكروا أحوال المسند والمسند إليه، كذكره وحذفه وتعريفه ووصفه وتنكيره وتقديمه على المسند وتأخيره عنه، وكذا تخصيصه وقصره، والمقتضيات البلاغية لذلك كله، خاصة لدى عبد القاهر والزمخشري والسكاكي وغيرهم.

وقد تحدث (سيبويه) عن الإسناد في قوله: «هذا باب المسند والمسند إليه: وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدّا. فمن ذلك: الاسم المبتدأ والمبني عليه وهو قولك عبد الله أخوك وهذا أخوك، ومثل ذلك يذهب عبد الله، فلا بدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدّ من الآخر في الابتداء»[1]، وقال الزجاجي:«اعلم أن الاسم المبتدأ مرفوع، وخبره إذا كان اسما واحدا مثله فهو مرفوع أبدا وذلك قولك: زيدٌ قائمٌ فزيد مرفوع لأنه مبتدأ والابتداء معنى رفعه وهو مضارعته للفاعل، وذلك أنّ المبتدأ لا بدّ له من خبر ولا بدّ للخبر من مبتدأ يسند إليه، وكذلك الفعل والفاعل لا يستغني أحدهما عن صاحبه فلما ضارع المبتدأ الفاعل هذه المضارعة رفع نحو قولك زيدٌ قائمٌ فزيد مرفوع بالابتداء وقائم خبره»[2]، ويبين الأعلم الشنتمري الإسناد في قوله: «قوله المسند والمسند إليه فيه أوجه نذكر أجودها وأرضاها: وهو أن يكون المسند الحديث، والمسند إليه هو المحدّث عنه، وذلك على وجهين: فعل وفاعل، واسم وخبر، وإنّما كان المسند الحديث، والمسند إليه المحدّث عنه، كقولك هذا حديث مسند إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فالحديث هو المسند ورسول الله –صلى الله عليه وسلم- هو المسند إليه. ووجه ثان أن يكون التقدير فيه: هذا باب المسند إلى الشيء والمسند ذلك الشيء إليه،

---

(1) - سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط3، 1983، ج1، ص23.

(2) - الزجاجي، عبد الرحمن بن إسحاق: الجمل في النحو، تح: علي الحمد، مؤسسة الرسالة، عمان، الأردن، ط1، 1984، ص36.

وحذف من الأول اكتفاء بالثاني، فكل واحد منهما مسند إلى صاحبه لاحتياجه إليه إذ لا يتم إلا به.»[1].

ويتبين مما ذكره علماء العربية أن الإسناد في الجملة الفعلية والاسمية له ركنان لا يستغني أحدهما عن الآخر، ففي الجملة الفعلية المسند هو (الفعل) والمسند إليه هو (الفاعل) أوما ينوب عنه، أما الجملة الاسمية فمسندها هو (الخبر) أما المسند إليه فهو (المبتدأ). والسؤال الذي يواجهنا هو: كيف يسهم الإسناد في ربط المتتاليات الجملية في النص ؟.

قبل الإجابة عن هذا السؤال نشير إلى أمر مهم في التحليل النصي، وهو ما قرره علماء النص فيما يتعلق بـ(الجملة النواة) في النص وما يرتبط بها من متعلقات عن طريق وسائل ربط مختلفة نحوا ودلالة، وأنها عادة تكون في بداية النص ويدوم أثرها إلى متتاليات جملية لاحقة قد تصل إلى آخره، وهذا ما يجعل التحليل النصي يتجاوز حدود الجملة بصفتها أكبر وحدة للتحليل إلى مستوى أكبر وأرحب تمثل فيه الجملة وحدة من وحدات كثيرة في بناء متكامل هو النص.

وانظر إلى سورة (الأنعام) كيف حقق الإسناد فيها معياري السبك والالتحام، إذ أن الافتتاح في هذه السورة كان بجملة اسمية ركنا الإسناد فيها هما: المسند (لله) والمسند إليه (الحمد) وهما مبتدأ وخبر، لذلك ذكر أن هذه السورة فيها إخبار بأن الحمد وغيره من المحامد مستحق لله، وهذه الفاتحة (الفقرة) التي تتكون من آيتين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...①﴾الأنعام:1، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى..﴾الأنعام:2، يمثل فيها (الإسناد) الجملة النواة التي سيكون لها امتداد في الجمل الموالية على مستوى الفقرة الواحدة، وعلى مستوى الفقرات اللاحقة في السورة، فالأول كان بإحالة الاسم الموصول والإشارة على ركن

(1) - المبرد، محمد بن يزيد: المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، (د.ت.ط)، ج1، ص08.

الإسناد في الجملة النواة، ويمتد تأثير الإسناد إلى الفقرة الثانية المكونة من أربع آيات هي قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ ۝٣﴾ الأنعام: 3، وقوله: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ... ۝٤﴾ الأنعام: 4 ، وقوله كذلك: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ... ۝٥﴾ الأنعام: 5،

وقوله أيضا ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ... ۝٦﴾ الأنعام: 6.

والحقيقة أن تأثير (الإسناد) يستمر حتى آخر السورة، وذلك بالنظر إلى الأفعال المسندة إلى اسم الجلالة (الله)، وذلك بدء من الفقرة (03) حتى الفقرة (52) من السورة، ويتبين من ذلك أن إسناد الأفعال في هذه الآيات من الممكن أن يعود كله إلى الجملة النواة (الحمد لله) والتي بنيت بالأساس –كما ذكرنا- على الإسناد، فتأمل هذه الآيات التي أخذت من فقرات عديدة من نص السورة:

-﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ... ۝٧﴾ الأنعام: 7/ الفقرة: 03.

-﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ... ۝٢٥﴾ الأنعام: ٢٥/الفقرة:07 .

- ﴿...وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ... ۝٣٥﴾ الأنعام: 35/الفقرة:10.

-﴿.. وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ... ۝٥٣﴾ أنعام: 53/الفقرة:14.

-﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ... ۝٧٥﴾ الأنعام: 75 / الفقرة:21.

-﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ... ۝١٢٢﴾ الأنعام: 122/الفقرة:35.

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ... ۝١٦٥﴾ الأنعام: 165/الفقرة:52.

وهذه الآيات رغم أنها في فقرات مختلفة إلا أن تماسكها واضح، وهو ناتج بالأساس عن علاقة (الإسناد).

1-أ-2.الحذف:

الحذف في اللغة القطع من الطّرف، وفي الاصطلاح «إسقاط كلمة بخلفٍ منها يقوم مقامها»[1]، ويعرّفه باحث آخر بقوله: «إسقاط لصيغ داخل النص التركيبي في بعض المواقف اللغوية، وهذه الصيغ يفترض وجودها نحويا لسلامة التركيب وتطبيقا للقواعد»[2]. وهو ملحظ نحوي دقيق المسلك له سماته المتفردة التي تجعله شبيها بالسحر[3]. ولذلك عبر عنه ابن الأثير (ت637 هـ) بأنه نوع من التأليف شريف لا يكاد يلجه إلا فرسان البلاغة وذلك لعلو منزلته[4].

فابن الأثير يعدّه نوعا من التأليف النحوي الدقيق الذي يكتشفه أهل البلاغة. ولا شك في أن أول من طرق بابه هم النحاة الذين عنوا بدراسته، وبينوا مواضعه غذ كانوا يذكرون اللفظ ويحذفونه حسبما يقتضيه السياق والمعنى، فقد أشار إليه سيبويه في أكثر من موضع من (الكتاب) مبينا أنواعه وكاشف عن أسبابه مؤكدا أن ذلك من سمة العرب الفصحاء في أساليبهم[5]، وعدّه ابن جني (ت392 هـ) بابا قيما من أبواب الشجاعة العربية[6].

---

(1)- اللبدي، سمير: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1985. ص 63.

(2)- أبو المكارم، علي: الحذف والتقدير في النحو العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2007، ص 200.

(3)- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر (د.ت).

(4)-الجزري، ابن الأثير: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح: مصطفى جواد وجميل سعيد، المجمع العلمي العراقي، بغداد، العراق، ط1، 1956، ص 122.

(5)- ينظر: الكتاب: 1/8، 111،و279، و2/144.

(6)- ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط4، 1990، ج2، ص360.

والحذف عند النصيين بنفس المعنى تقريبا ولا مجال للخلاف الواسع هنا إذ يمثل: «استبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذّهن، أو أن يوسع أو أن يعدّل بواسطة العبارات الناقصة»[1]، والفارق البسيط بينهما أنّه عند اللغويين العرب لم يجاوز حدود الجملة كحذف المبتدأ لدلالة الخبر عليه، أو حذف الفاعل والمفعول لدلالة الفعل عليهما، وعند علماء النص يتعدى حدود الجملة إلى النص.

ويذهب علماء النص إلى أن الحذف يقوم على ثلاثة محاور هي[2]:

1- التكراروذلك بعد تقدير المحذوف.

2- المرجعية بين العنصر المحذوف وبين العنصر المذكور، وتكون قبلية أو بعدية وهذه المرجعية داخل النص (مقالية) أو خارجه (مقامية).

3- وجود دليل أو قرينة تشير للعنصر المحذوف، وهي التي تنشأ مع المرجعية الداخلية، ومن ثمّ يتحقق السبك النصي في الكلام.

<u>1-أ-3. الالتفات:</u>

أفرد الرازي للالتفات بابا عرض فيه لأنواعه المختلفة، وقال في تعريفه: «هو تعقيب الكلام بجملة تامة ملاقية إياه في المعنى، ليكون تتميما له على جهة المثل أو غيره»[3]. أما حازم القرطاجني فالالتفات عنده هو ضرب ما أسماه الانعطاف بالكلام من جهة إلى أخرى أو من غرض إلى غرض آخ، وهذا الانعطاف لا يكون التفاتا إذا لم يكن القصد من ذكر الغرض الأول منذ البداية أن يكون تمهيدا أو سببا لذكر الثاني؛ لأن الالتفات معناه أن «يجمع بين حاشيتي كلامين متباعدي المآخذ والأغراض، وأن ينعطف من إحداهما

(1)- دوبوجراند: النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، ص301.

(2)- ينظر: الفقي، صبحي إبراهيم: علم لغة النص بين النظرية والتطبيق، ص 172.

(3)- الرازي، فخر الدين: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تح: محمد زغلول سلام ومصطفى هدارة، الإسكندرية، مصر، ط1، 1974، ص112.

إلى الأخرى انعطافا لطيفا من غيرواسطة تكون توطئة للصيرورة من أحدهما إلى الآخرعلى جهة التحول»[1].

و الالتفات هو من العلاقات الدلالية الأكثرترددا في نص القرآن الكريم، ومن فنون القول التي لاقت عناية لدى البلغاء وعلماء التفسير؛ لأنه ينقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب ومن صيغة إلى صيغة ومن خطاب إلى آخر، وكما ذكرعلماؤنا الأجلاء أن له فوائد كتطرية الكلام، وتفادي السآمة والملل كون النفوس جبلت على حب التنقل بين واد من القول إلى آخر، والزركشي يتحدث عن فوائد الالتفات العامة والخاصة بقوله:«اعلم أن للالتفات فوائد عامة وخاصة، فمن العامة التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر، لما في ذلك من تنشيط السامع واستجلاب مجاري الكلام وتسهيل للوزن والقافية شعرا ونثرا»[2]، ولا تقتصرمهمة الالتفات على ما ذكره الزركشي بل له فوائد خاصة كما أشارفي نصه تقع من مسائل النص موقعا حسنا إذ تشيرإلى وظيفة الالتفات في حبك النص وضمّه إلى بعض.

ويشيرالبقاعي إلى الالتفات ووظيفته في مواضع كثيرة من تفسيره، ففي (أم القرآن) ينبه الإمام على الالتفات بقوله:«فلما استجمع الأمراستحقاقا وتحبيبا وترغيبا وترهيبا كان من شأن كل ذي لب الإقبال إليه وقصرالهمم عليه فقال عادلا عن أسلوب الغيبة إلى الخطاب لهذا مقدما للوسيلة على طلب الحاجة لأنه أجدر بالإجابة: ﴿إِيَّاكَ﴾،...، وأعقبه بقوله مكررا للضمير حثا على المبالغة في طلب العون ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى أن عبادته لا تتهيأ إلا بمعونته وإلى أن ملاك الهداية بيديه»[3]، فكان غرض الالتفات هو الحث

(1)- القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دارالغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986، ص 315-314.

(2)- الزركشي، بدرالدين: البرهان في علوم القرآن، تح: مصطفى عبد القادرعطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ج3، ص 210.

(3)- البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تح: عبد الرزاق غالب

على المبالغة في طلب العون، وتم الربط بين الآيتين على أساس هذا الغرض، فتحقق انسجام النص.

ومن الالتفات ما يأتي للتذكير مثلما كما أوضحه الإمام في تفسير الآية: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ...﴿١٠﴾﴾ الأعراف: 10، بقوله: «ولما أمر الخالق بمتابعة الرسل، وحذرهم من مخالفتهم، فأبلغ في تحذيرهم بعذاب الدنيا ثم بعذاب الآخرة، التفت إلى تذكيرهم ترغيبا في ذلك بإسباغ نعمه وتحذيرا من سلبها، لأن المواجهة أردع للمخاطب، فقال في موضع الحال من ﴿خسروا أنفسهم﴾»[1]، وهذ يجعل الآيات متعالقة بعضها ببعض، ويلتحم فيها المتقدم مع المتأخر لإبانة القصد.

ومن الالتفات ما يكون للإنكار والإيماء إلى أشد الغضب وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ مريم: 88 – 89.

يقول البقاعي: «...ثم استأنف الالتفات إلى خطابهم بأشد الإنكار، إيماء إلى تناهي الغضب فقال: ﴿لَقَدْ﴾ أي وعزتي لقد ﴿جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي عظيما ثقيلا منكرا»[2].

فالالتفات كما بينت الأمثلة السابقة أحد وسائل الربط الدلالي بين الآية والآية وتجاوز الجملة الواحدة، وهو كثير في القرآن كما ذكر أهل البلاغة وأئمة التفسير على افتراض أن هنالك جهة جامعة تجمع آي السورة الواحدة، وفلم يخف بعد دوره في حبك النص وضمه إلى بعض.

1-أ-4 الفصل والوصل:

تحدث البلاغيون عن الفصل والوصل ولم تخل كتبهم من التنبيه على مواضعهما لدى الجرجاني والزمخشري ومن جاء بعدهما، والوصل في

المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ج1، ص 16.

(1)- المرجع نفسه: ج3، ص10.

(2)- المرجع نفسه: ج4، ص558.

البلاغة عطف قسم من الجمل على قسم، والفصل تركه كما جاء لدى القزويني، وها هو التفتازاني معلقا على ما جاء في كتاب القزويني لتقديمه الفص على الوصل:«بدأ بذكر الفصل لأنه الأصل، والوصل طارئ أي عارض عليه حاصل بزيادة حرف، لكن لما كان الوصل بمنزلة الملكة والفصل بمنزلة عدمها، والأعدام أنما تعرف بملكتها بدأ في التعريف بذكر الوصل»(1). ويقصد بمنزلة الملكة أي الأمر الوجودي لأن حرف العطف بوجوده يكون الكلام موصولا وبعدمه يكون الكلام مقطوعا.

وعبد القاهر يبين تفصيلاته بقوله:«إن الجمل على ثلاثة أضرب: جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكد فلا يكون فيها العطف البتة لشبه العطف –لو عطفت بعطف الشيء على نفسه. وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون كلا الاسمين فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه فيكون حقها العطف. وجملة ليست في الشيء من الحالين.. وحق هذا ترك العطف البتة. فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية، أو الانفصال إلى الغاية والعطف لما هو واسطة بين الأمرين وكان له حال بين الحالين فاعرفه»(2).

كما عرض الزمخشري لما جاء تحت باب الفصل والوصل وأشار إلى أنهما من أسس البلاغة العربية إذ يقول في تفسير الآيات الأول من سورة البقرة:﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾البقرة:1 - 2والذي هو أرسخ عرقا في البلاغة أن يقال: إن قوله: ﴿ألم﴾ جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية، و﴿لا ريب فيه﴾ ثالثة، و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة. وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق (أي

(1)- التفتازاني، سعد الدين: تهذيب السعد، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، مصر، ط3، 1980، ج3، ص58.

(2)- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص187.

عطف) وذلك لمجيئها متآخية آخذ بعضها بعنق بعض»[1]. وفي قوله:« وذلك لمجيئها متآخية آخذ بعضها بعنق بعض» بيان لفاعلية (الفصل والوصل) في نظم هذه الآية الكريمة واتساق مبناه وانسجام معانيها، وهو ما يؤكد أن البلاغيين تنبهوا للأدوات التي تحقق تماسك بناء النص وتضفي التئاما حسنا بين أجزاء الخطاب.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿..إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ البقرة: 14.

- يقول الزمخشري: «الجملة الثانية تأكيد للأولى؛ لأن قوله ﴿إنّا معكم﴾ معناه الثابت على العبودية، وقوله ﴿إنما نحن مستهزؤون﴾ رد الإسلام، ودفع له منهم؛ لأن المستهزئ بالشيء المستخف به منكر له، ودافع لكون معتدا به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته، أو بدل منه؛ لأان من حقر الإسلام فقد عظم الكفر،... أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم: ﴿ إنّا معكم﴾ فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام؟ فقالوا: ﴿ إنما نحن مستهزؤون﴾»[2]. فالفصل هنا –كما فهمه الزمخشري- سببه أن الجملة الثانية مؤكدة للأولى أو بدل منها أو جواب على سؤال مقدر، ووقوع الجملة الثانية هكذا هو الذي أطلق البلاغيون عليه: الفصل لكمال الاتصال أو لشبهه. وهذا القول فيه بيّنة على أن الزمخشري وغير من البلاغيين يدركون دور (الوصل والفصل) في الانتقال من خطاب إلى خطاب آخر والالتفات إليه بشرط وجود جامع بينهما، أو ما يعرف عند النصيين بـ(الجهة الجامعة) التي تمثل معيارا دلاليا في الأغلب.

ب. أثر مباحث علم البديع في بناء النص وتماسكه:

من الممكن أن تشغل فنون البديع في اللسانيات النصية حيز الاهتمام نفسه الذي شغلته مباحث علم المعاني، وذلك بالنظر إلى نقل هذه الفنون

(1)- الزمخشري، جار الله: الكشاف، تحقيق: شوقي المعري ومزيد نعيم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج1، ص36.

(2)- الزمخشري، جار الله: الكشاف، ج1، ص66.

من وظيفة تحسين هيئة الكلام كما بينها علماء البلاغة إلى وظيفة أخرى وهي تعزيز تماسك النص وتحقيق انسجامه، ومن ثم سيأتي الحديث عن قيمة هذه الفنون البديعية في ضوء المعالجة النصية وفق التقسيم الذي ارتضاه البلاغيون: بديع لفظي وآخر معنوي.

ب-1. رد العجز على الصدر:

وهو من فنون البديع اللفظي التي تسهم في ترابط أجزاء النص ويسميه بعضهم (الترديد)، وقد عرفه القزويني بقوله:«ومنه رد العجز على الصدر وهو في النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين في أول الفقرة، والآخر في آخرها»[1]، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۝٣٧﴾الأحزاب: ٣٧ وقوله:﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ نوح: 10، وفي النظم أن يكون أحدهما في آخر بيت والآخر في صدر المصراع الأول أو آخره أو صدر الثاني كقول الشاعر:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي الندى بسريع[2].

وعليه فرد العجز على الصدر أو (الترديد) يعزز علاقة البداية بالنهاية، فالبدايات تدل على النهايات، والنهايات تدل على البدايات. وقد تنبه عبد القاهر الجرجاني إلى قيمة هذا الفن ودوره في ربط أجزاء النص وذلك في تحليله لقوله تعالى:﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾ نجد فيه التفاته إلى مقابلة (قيل) في الخاتمة بـ(قيل) في الفاتحة. وحين نرجع إلى تحليل ابن أبي الأصبع للآيات عينها نجد فيه أيضا التفاتا إلى رد عجز هذه الآية على صدر آية أخرى سابقة حيث يقول ابن أبي الأصبع: «فإن قيل لفظة(القوم) زائدة تمنع الآية من أن توصف بالمساواة؛ لأنها إذا طرحت استقل الكلام

---

(1)- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط2، 1978، ص392.

(2)- المرجع نفسه: ص393.

بدونها، بحيث يقال: ﴿وقيل بعدا للظالمين﴾ قلت: لا يستغني الكلام عنها؛ وذلك أنه لما قال سبحانه في أول القصة: ﴿...وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ...﴿٣٨﴾﴾ هود: 38، وقال بعد ذلك: ﴿...تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ هود: 37، جاءت لفظة (القوم) في آخر القصة ووصفهم بالظلم ليرتد عجز الكلام على صدره، ويعلم أن القوم الذين هلكوا بالطوفان هم الذين كانوا يسخرون من نوح عليه السلام، فهم مستحقون العقاب لئلا يتوهم ضعيف أن الطوفان لعمومه ربما أهلك من لا يستحق الهلاك، لإخبر الله سبحانه وتعالى أن الهالكين هم الذين تقدم ذكرهم، وما كانوا يفعلونه مع نبيه من السخرية التي استحقوا بها الهلاك، وأنهم الذين وصفهم بالظلم، ووعد نبيه بإغراقهم، ونهاه عن مخاطبته فيهم، ليرتفع ذلك الاحتمال فيعلم أن اله سبحانه قد أنجز نبيه وعده، وأهلك القوم الظالمين الذين ذكرهم ووصفهم ووعد بإغراقهم»[1].

ب-2. تشابه الأطراف:

ومن فنون البديع كذلك لدى أهل البلاغة **تشابه الأطراف** وقد عرف عندهم باحتوائه على قسمين: معنوي وآخر لفظي. والمعنوي هو أن يختم المتكلم كلامه بما يناسب ابتداءه في المعنى، كقول الشاعر:

ألذُّ مــــن السّحــــر الحــلال حديثه وأعــــذبُ مـــــن ماء الغمامة ريقهُ.

فالريق يناسب اللذة في أول البيت. أما اللفظي فنوعان: أولهما أن ينظر الناظم أو الناثر إلى لفظة وقعت في آخر المصراع الأول أو الجملة فيبدأ بها المصراع الثاني أو الجملة الثانية كقوله تعالى: ﴿...مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ...﴿٣٥﴾﴾ النور: 35، وكقول أبي تمام[2]:

(1)- ينظر: عبد المجيد، جميل: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص98.

(2)- ينظر: الهاشمي، السيد أحمد: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ت.ط)

هوى كان خِلساً إنّ من أبرَدِ الهوى   هوىً جُلتَ في أفيانه وهو خاملُ.

أما الثاني أن يعيد الناظم لفظة القافية من كل بيت في أول البيت الذي يليه، كقول الشاعر:

رمتني وستر الله بيني وبينها   عشية آرام الكناس رميمُ

رميم التي قالت لجيران بيتها   ضمنتُ لكم ألا يزال يهيمُ

وقد علق الجاحظ على هذه الأبيات وجعلها في من قبيل«الشعر المتلاحم الأجزاء، والذي بهذا التلاحم يعلم أنه أفرغ إفراغا جيدا، وسبك سبكا واحدا»(1).

ويتضح من الأمثلة السابقة أن تشابه الأطراف يتجاوز مستوى الجملة والبيت وإحكام الربط بين أجزائهما، وهو ما دفع ابن معصوم إلى الاعتراف باقتدار الشاعر وطول باعه في الصناعة الشعرية إذا لزم هذا الفن في نظمه بقوله:«وفي هذا النوع أعني تشابه الأطراف، دلالة على قوة عارضة الشاعر وتصرفه في الكلام، وإطاعة الألفاظ له، ولا يخلو ذلك مع ذلك من حسن موقع في السمع والطبع، فإن معنى الشعر يرتبط ويتلاحم به، حتى كان معنى البيتين أو الثلاثة معنى واحدا»(2).

وفي قول الجاحظ وابن معصوم ما يعبر عن قيمة هذا الفن ودوره في اتساق الكلام وانسجامه، فالجاحظ ذكر تلاحم الأجزاء والسبك الجيد حتى يصير الكلام على سمت واحد وكأنه أفرغ إفراغا، أما ابن معصوم فقد ذكر الارتباط والتلاحم وشدة اتصال معاني الأبيات بعضها ببعض، ولا جرم أن هذا الاتصال الذي ألاح إليه في حديثه يقوي انسجام النص وترابط أجزائه.

ب-3. المطابقة (التضاد):

بعد الفنين السابقين (رد العجز على الصدر) و(تشابه الأطراف) يأتي الحديث عن فن بديعي أثير لا يخلو نص منه، وهو فن **المطابقة** أو **التضاد** أو

(1)- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، (د .ت).

(2)- ينظر: عبد المجيد، جميل: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص100.

الطباق، وهي لدى البلاغيين تتلخص في «الجمع بين متضادين أي معنيين متقابلين في الجملة، ويكون بلفظين من نوع اسمين نحو: وتحسبهم أيقاظا وهم رقود، أو فعلين نحو يحيي ويميت، أو حرفين نحو: لها ما اكتسبت وعليها ما اكتسبت، أو من نوعين نحو: أومن كان ميتا فأحييناه»[1].

وواضح أن هذا الفن يعد وسيلة من وسائل الربط بين الجمل والمتتاليات النصية وذلك عن طريق استحضار الشيء وضده على نحو يعزز ارتباطها، وهذا النوع من المطابقة يختص بمصطلح (طباق الإيجاب)، ففي الأمثلة السابقة نقع على ألفاظ يصحب أحدها الآخر: أيقاظ/رقود، يحيي/يميت، لها/عليها، وبفعل هذا التباين يحدث التحام الجمل وترابطها مثل قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ...(26)﴾آل عمران:26.

ومن التضاد ما يتسع حتى يشمل آيات عديدة تترابط ببعضها ببعض، فيحدث ذلك انسجاما بين معانيها، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (14) هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟﴾الملك: 12 – 15 ، بعد قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (10) فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (11)﴾الملك: 8 - 11، وذلك أنه لما ذكر حال أصحاب النار وجوابهم خزنة النار واعترافهم بذنبهم أتبعهم أضدادهم المطوعين أنفسهم لإشارة العقل المتأهلين لنعت المعرفة، فقال مؤكدا لما للأضداد من التكذيب: ﴿إن الذين يخشون﴾أي يخافون خوفا أرق قلوبهم وأرق بحيث كانوا الحب على المقلى لا يقر لهم قرار من توقعهم العقوبة، كلما ازدادوا طاعة ازدادوا خشية.

(1)- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة، ص348.

ب-4. الجمع مع التقسيم:

الجمع مع التقسيم هو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر تحت حكم واحد، ثم يقسم ما جمع أو يقسم أولا ثم يجمع، فالأول نحو:﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾ (الزمر:42) وكقول المتنبي:

حتى أقام على أرباض خرشنة تشقى به الروم والصلبان والبيعُ

للرق ما نسلوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

وكقول حسان بن ثابت[1]:

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا.

سجية تلك فيهم غير محدثة إنّ» الخلائق فاعلم شرها البدعُ.

والجمع مع التقسيم يضاهي علاقة الإجمال والتفصيل، وهو رابط دلالي يسهم في حبك النص، وأمثلته كثيرة في القرآن ومنها قوله تعالى:﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ الرعد:4وذلك بعد قول المولى سبحانه﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣﴾الرعد: 3، فبعد أن ذكر الله آيات السماوات ثنى بها آيات الأرض، وبدأها بمدّ الأرض وجعل الرواسي من الجبال ثابتة باقية، ثم ذكر الأنهار وما ينشأ عن مياهها من الثمرات وما ينضجها من حرّ وبرد بتعاقب الليل والنهار، وختم بالحث على التفكر في كل ذلك والتنقيب عن مسببها للوصول إلى الصانع القدير والمدبر الحكيم، ثم لما كان ما ذُكرَ في هذه الآية دليلا على إحكام الصنعة وعظيم القدرة والتدبير مع وضوحه يعتريه بعض الغموض، شرع في تفصيل ما في الأرض من الآيات التي هي أبين من ذلك دليلا ظاهرا جدا فأتت الآية الموالية لهذا الغرض.

(1)- الهاشمي، السيد أحمد:جواهر البلاغة، ص312.

ومن التفصيل ما يكون عن طريق النشر المشوش وذلك في قول الله -عز وجل-: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ۝٣٠ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝٣١﴾الجاثية:30 - 31 وذلك بعد آيات سابقات تحدث فيها المولى -تقدست أسماؤه- عن المبطلين في الآية:﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٢٧﴾الجاثية:27. ونكرانهم البعث واحتجاجهم لذلك، وذكر الله على الإحياء والموت والبعث وتفرده بملك السماوات والأرض، وأن لا شيء يخرج عن أمره وقضائه فتحقق خسرانهم، وأشار قبل ذلك إلى أن الإسلام شريعة عالية الرتبة وأنه ألزم متبعيها وإمامهم أن يمضوا فيها بغاية الجهد، وأن لا يتبعوا أهواء من لا علم له، فصرح بما لوح إليه من أمر المهتدين المحقين وعطف عليهم أضدادهم، فقال بادئا بهم على طريق النشر المشوش مفصلا: ﴿فأما الذين آمنوا﴾.

ب-5. مراعاة النظير:

هذا الفن من فنون البديع يعني الجمع بين أمرين أو أمور متناسبة لا على جهة التضاد، وذلك إما بين اثنين نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾الشورى: 11، وإما بين أكثر من ذلك نحو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ۝١٦﴾البقرة: 16. ويلحق بمراعاة النظير ما بني على المناسبة في المعنى بين طرفي الكلام، ويعني ذلك أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى نحو قول المولى سبحانه: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾الأنعام: 103، فإن اللطيف يناسب عدم إدراك الأبصار له، والخبير يناسب إدراكه سبحانه وتعالى للأبصار[1].

أو ما بني على المناسبة في اللفظ باعتبار معنى له غير المعنى المقصود في العبارة نحو قوله تعالى:﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ

(1)- المرجع السابق، ص304.

﴿٦﴾الرحمن: 5 - 6 فإن المراد بالنجم هنا النبات فلا يناسب الشمس والقمر، ولكن لفظه يناسبهما باعتبار دلالته على الكواكب، وهذا يقال له «إيهام السامع» كقوله:

كأنّ الثّريا علقت على جبينها وفي نحرها الشّعرى وفي حدها القمرُ.[1]

وهذا الضرب من المناسبة بين أطراف الكلام كان مثار النقاش والجدل ومثل ذلك ما أثير حول بيتي المتنبي:

وقفت وما في الموت شكٌ لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائمُ

تمرُّ بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضّاح وثغرك باسمُ

وقد أوخذ المتنبي على ذلك وقيل لو جعل آخر البيت آخرا للبيت الثاني، وآخر البيت الثاني آخر البيت الأول لكان أولى.

ب6-. حسن التخلص:

حسن التخلص فن لطيف من فنون البديع ومعناه أن«ينقلَ ما ابتدئَ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما»[2].

ومن ذلك قوله تعالى حاكيا قول سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾الشعراء: 87 ، وهو تتمة تضرع إبراهيم إلى ربه، فتخلص منه إلى وصف المعاذ في الآية التالية:﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ ليرهب المشركين الذين يخاطبهم عقب اتهامهم له بتكسير أصنامهم. وفي سورة الكهف مثل ذلك حين حكى قول ذي القرنين عن السد: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾الكهف: 98 ، فقد تخلص من ذلك

(1)- المرجع نفسه، ص305.

(2)- السيوطي، جلال الدين: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر،1973، ص 61.

إلى وصف حالهم بعد أن ذكر ما هو من شروط الساعة، ثم النفخ في الصور، وذكر الحشر، ووصف حال الكفار والمؤمنين[1].

وشبيهه الاستطراد وهو كما عرفه ابن أبي الأصبع: « الخروج من معنى إلى آخر»[2] يتصل بالمعنى الأول ويعمقه وليس مجرد خروج، كما في قوله تعالى:﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ۝٢٦﴾الأعراف: 26. ويورد السيوطي تعليق الزمخشري على هذه الآية:« هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدوّ السوءات، وخصف الورق عليها، إظهارا للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العراء وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى»[3] فالاستطراد يلفت انتباه الإنسان إلى الستر المعنوي الذي يجب أن يعمق ستره المادي.

غير أن الفرق بين «حسن التخلص» و «الاستطراد» يتمثل في أنك في الأول تترك ما كنت فيه بالكلية، وتقبل على ما تخلصت عليه، وفي الاستطراد تمر بذكر الأمر الذي استطردت إليه مرورا كالبرق الخاطف ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه، كأنك لم تقصده وإنما عرض عروضا، لكن كلا الفنين يحققان التحام أجزاء الكلام وانسجام المعاني فيهما [4].

هذا وبعد التطواف في مباحث علمي المعاني والبديع يمكن القول أنها توشك أن تستوعب المقولات الأساسية للسانيات النص ونظريات تحليل

---

(1)- عيد، محمد: النص والخطاب، قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2009، ص 62.

(2)- ابن أبي الأصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة، مصر،ط1، 1995، ص 130.

(3)- السيوطي، جلال الدين: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ص59.

(4)- ينظر: المرجع نفسه، ص61.

الخطاب، وعليه نحن أمام أفق معرفي يحمل في ثناياه نضارة مشرقة لا يخفى نورها على الألباب، وينطوي على ثراء نوعي يؤتينا من الإمكانيات ما يشجع على التحاور الفعّال مع ما تطرحه النظريات الغربية من اتجاهات جديدة في البحث البلاغي.

*** المراجع و المصادر:

1- ابن أبي الأصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة، مصر،ط1، 1995.

2- البقاعي، برهان الدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تح: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995.

3- التفتازاني، سعد الدين: تهذيب السعد، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، مصر، ط3، 1980.

4- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

5- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر (د.ت).

6- الجزري، ابن الأثير: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح: مصطفى جواد وجميل سعيد، المجمع العلمي العراقي، بغداد، العراق، ط1، 1956.

7- ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط4، 1990.

8- دوبوجراند: النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط 1، 1998.

9- الرازي، فخر الدين: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تح: محمد زغلول سلام ومصطفى هدارة، الإسكندرية، مصر، ط1، 1974.

10- الزجاجي، عبد الرحمن بن إسحاق: الجمل في النحو، تح: علي الحمد، مؤسسة الرسالة، عمان، الأردن، ط1، 1984.

11- الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، تح: مصطفى عبد القادرعطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2009.

12- الزمخشري، جار الله: الكشاف، تحقيق: شوقي المعري ومزيد نعيم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

13- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط3، 1983.

14- السيوطي، جلال الدين: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر،1973.

15- عبد المجيد، جميل: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 1998.

16- عيد، محمد: النص والخطاب، قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2009.

17- فان ديك، توين: علم النص،: مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2001.

18- فضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية للنشر لونجمان، الجيزة،مصر، ط1، 1996.

19- الفقي، صبحي إبراهيم: علم لغة النص بين النظرية والتطبيق – دراسة تطبيقية على السور المكية-، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2000.

20- القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986.

21- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط2، 1978.

22- اللبدي، سمير: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1985.

23- المبرد، محمد بن يزيد: المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، (د.ت.ط).

24- أبو المكارم، علي: الحذف والتقدير في النحو العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2007.

25- الهاشمي، السيد أحمد: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ت.ط).